الإمبراطور دقلديانوس وإصلاحات إعادة بناء الإمبراطورية الرومانية في ظل أزمة القرن الثالث الميلادي

د. خالد آدم أحميدة جاب الله
أستاذ مساعد بقسم التاريخ/ جامعة طبرق

د. مصيونة عبد الواحد محمد سليمان
محاضر بقسم التاريخ جامعة طبرق

الملخص

يتناول هذا البحث شخصية الإمبراطور دقلديانوس، الذي يُعد من أبرز حكّام الإمبراطورية الرومانية خلال القرن الثالث الميلادي، وهي فترة اتسمت بالأزمات السياسية والاقتصادية والعسكرية. جاء دقلديانوس إلى الحكم عام 284م، في وقت كانت فيه الدولة مهددة بالانهيار، فبادر إلى تنفيذ إصلاحات جذرية غيرت مسار التاريخ الروماني. من أهم إنجازاته ابتكار نظام الحكم الرباعي (التيتراركية)، الذي وزع السلطة بين أربعة أباطرة بهدف تعزيز الاستقرار الإداري والعسكري. كما أجرى دقلديانوس إصلاحات إدارية واسعة، أعاد من خلالها تقسيم الولايات وفصل بين السلطات المدنية والعسكرية، ورفع من كفاءة الجهاز البيروقراطي. وعلى الصعيد الاقتصادي، سعى إلى ضبط التضخم وتثبيت الأسعار من خلال مراسيم صارمة، وأعاد تنظيم النظام الضريبي والعملة. كذلك، عُرف دقلديانوس بحملته الشديدة ضد المسيحيين فيما عرف بالاضطهاد الكبير. يعكس البحث الأثر العميق لهذه الإصلاحات على استقرار الدولة الرومانية وبنائها من جديد بعد عقود من الفوضى.

الكلمات المفتاحية:

دقلديانوس/ الحكم الرباعي/ الإصلاحات الإدارية/ الأزمة الرومانية/ الاضطهاد الكبير

Abstract

Emperor Diocletian and the Structural Reforms of the Roman Empire During the Third-Century Crisis

This study explores the reign of Emperor Diocletian, one of the most pivotal figures in Roman imperial history during the Third Century Crisis—a time marked by intense political, economic, and military instability. Ascending to power in 284 CE, Diocletian introduced transformative reforms that aimed to restore order and cohesion to the crumbling Roman state. Chief among these was the implementation of the Tetrarchy, a system of shared imperial rule among four emperors, designed to ensure administrative efficiency and military responsiveness. He restructured the administrative apparatus by subdividing provinces, separating civil and military powers, and expanding the bureaucratic hierarchy. Economically, Diocletian attempted to curb inflation and stabilize the economy through rigorous price controls, tax reforms, and currency stabilization. Moreover, his reign is infamous for initiating the Great Persecution against Christians, reflecting his attempt to assert religious and political unity. The paper underscores how Diocletian's policies laid the groundwork for a more centralized and enduring imperial system.

Keywords: Diocletian/ Tetrarchy/Administrative reforms/Roman crisis/Great Persecution

المقدمة

عبر القرون، لعب الأباطرة الرومان دورًا جوهريًا في تحديد مصير الإمبراطورية الرومانية، إلا أن قلةً منهم استطاعت أن تُحدث تحولًا جذريًا في بنية الدولة، كما فعل الإمبراطور دقلديانوس (Gaius Aurelius Valerius Diocletianus). في أواخر القرن الثالث الميلادي، كانت الإمبراطورية الرومانية على حافة التفكك، تواجه أزمة متعددة الأوجه: انهيار اقتصادي متسارع، تمزق سياسي، تهديدات خارجية متنامية، وفوضى داخلية عارمة. وفي هذا السياق المضطرب، بزغ نجم دقلديانوس، الذي لم يكن من الطبقة الأرستقراطية، بل صعد من صفوف الجيش، ليصبح في عام 284م نقطة انطلاق لإعادة تشكيل الدولة الرومانية بأكملها.

لقد مثّل عهد دقلديانوس مرحلة فارقة في التاريخ الروماني، ليس فقط بسبب ما شهده من إصلاحات إدارية وعسكرية واقتصادية، بل لأنه أرسى نموذجًا جديدًا للحكم من خلال "التيتراركية" (نظام الحكم الرباعي)، وفرض نظامًا سياسيًا يهدف إلى تقويض الطموحات الانفصالية وتوفير استجابة أسرع للتهديدات. كما عرف عهده بواحد من أشد فصول الاضطهاد الديني في التاريخ القديم، عبر حملاته العنيفة ضد المسيحيين، والتي شكّلت لاحقًا خلفية لصدام طويل بين الدولة والكنيسة.

هدف البحث

يهدف هذا البحث إلى تقديم دراسة تحليلية شاملة لشخصية الإمبراطور دقلديانوس، مع التركيز على طبيعة إصلاحاته، وأثرها في إنقاذ الإمبراطورية من الانهيار خلال القرن الثالث الميلادي. كما يسعى البحث إلى استقصاء العوامل السياسية والاجتماعية والدينية التي دفعت دقلديانوس إلى تبني نهجه السلطوي، وتقييم نتائج هذا النهج على المدى القريب والبعيد.

أهمية البحث

تبرز أهمية هذا البحث من خلال تسليطه الضوء على مرحلة حرجة في تاريخ الإمبراطورية الرومانية، وعلى شخصية دقلديانوس التي تُعدّ من أكثر الشخصيات تعقيدًا في التاريخ القديم، نظرًا لتعدد أبعاد سياساته وتأثيراتها. ويكتسب البحث أهميته كذلك من كونه يقدّم قراءة متوازنة بين الجوانب الإدارية والاقتصادية والدينية لعصر دقلديانوس، معتمدًا على مصادر أولية وثانوية حديثة، في محاولة لتجاوز الصور النمطية التي اختزلت شخصية الإمبراطور في حملاته ضد المسيحية فقط.

تساؤلات البحث

ينطلق البحث من عدد من التساؤلات المحورية، أبرزها:

- ما الظروف التاريخية التي مهّدت لصعود دقلديانوس إلى السلطة؟

- كيف ساهم نظام الحكم الرباعي في تعزيز الاستقرار السياسي للإمبراطورية؟
- ما طبيعة الإصلاحات الإدارية والاقتصادية والعسكرية التي أطلقها دقلديانوس، وما مدى فعاليتها؟
- كيف نفسّر موقف دقلديانوس من الديانة المسيحية، وما الدوافع السياسية والدينية وراء "الاضطهاد الكبير"؟
- إلى أي مدى كان أثر سياسات دقلديانوس مستدامًا في عهد خلفائه، خصوصًا قسطنطين الكبير؟

منهجية البحث

يعتمد هذا البحث على المنهج التاريخي التحليلي، من خلال تتبّع الوقائع والأحداث التاريخية المرتبطة بعهد دقلديانوس، وتحليل الوثائق والنصوص القديمة، إلى جانب الدراسات الحديثة ذات الطابع النقدي. كما يتم توظيف المنهج المقارن عند دراسة التيتراركية والإصلاحات الإدارية، بمقارنتها مع الممارسات السابقة واللاحقة. ويُستخدم كذلك المنهج النقدي لفحص المواقف المتباينة للمؤرخين القدماء والمحدثين تجاه شخصية دقلديانوس، خصوصًا في سياق اضطهاده للمسيحيين.

السياق التاريخي لصعود الإمبراطور دقلديانوس

شهدت الإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث الميلادي واحدة من أعنف أزماتها الداخلية والخارجية، حيث تميزت تلك الحقبة بتراجع السلطة المركزية، وتفشي الحروب الأهلية، والانهيار الاقتصادي، وازدياد التهديدات الخارجية. وقد أدى هذا الوضع المضطرب إلى صعود شخصية قوية قادرة على إعادة النظام إلى الدولة، وكان دقلديانوس هو تلك الشخصية المحورية. جاء إلى السلطة عام 284م، ليصبح نقطة تحول في تاريخ الإمبراطورية الرومانية، وذلك من خلال قرارات حاسمة أعادت صياغة الحكم الروماني.

أولًا: أزمة القرن الثالث

يُعرف القرن الثالث الميلادي في التاريخ الروماني بـ"عصر الأزمات (Crisis of the Third Century)"[*]، وهي فترة بدأت من عام 235م بعد اغتيال الإمبراطور الإسكندر سيفيروس. وخلال خمسة عقود، تعاقب على العرش أكثر من عشرين إمبراطورًا، أغلبهم لم يحكم سوى سنوات قليلة قبل أن يُقتل

[*] هي فترة حرجة من تاريخ الإمبراطورية الرومانية امتدت تقريبًا بين 235 و284م، تميزت بانهيار النظام السياسي، والانقسامات العسكرية، وانخفاض اقتصادي حاد، وتفشي الأوبئة، وازدياد الهجمات من الشعوب الجرمانية والفرس الساسانيين. وقد بلغ عدد الأباطرة في هذه الحقبة أكثر من عشرين، معظمهم قتل أو خُلع سريعًا، ما يدل على الفوضى السياسية والعسكرية.
Potter, D. S. (2004). *The Roman Empire at Bay, AD 180–395* (p. 46).

أو يُخلع .(Potter, 2004, p. 46) وكان هذا الانقلاب المستمر في القيادة ناتجًا عن النفوذ المتزايد للجيش، خاصة الحرس البريتوري**، الذي صار له الكلمة العليا في تنصيب الأباطرة.

من جهة أخرى، عانت الإمبراطورية من انكماش اقتصادي حاد وتضخم مفرط بسبب الإنفاق العسكري المتزايد وانخفاض الإنتاج الزراعي، إلى جانب الأوبئة والمجاعات المتكررة (Jones, 1964, p. 31). كما تعرضت حدود الدولة لهجمات مستمرة من القوط في الشمال والفرس الساسانيين في الشرق، مما أرهق القوات الرومانية وهدد وحدة الدولة.

ثانيًا: الانقسامات الداخلية والصراعات العسكرية

كان التنافس بين القادة العسكريين من أهم أسباب الفوضى، إذ بات كل قائد طموح قادر على إعلان نفسه إمبراطورًا بدعم من جيوشه الخاصة، مما أدى إلى تفكك السلطة المركزية. فعلى سبيل المثال، أنشأ الإمبراطور الغاصب بوستوموس إمبراطورية غالية *(260–274م) في الغرب، بينما استقل أوديناتوس وزينوبيا في تدمر **بالشرق.(Heather, 2005, pp. 97–98)

هذه الانقسامات أضعفت الإمبراطورية سياسيًا وعسكريًا، وأظهرت الحاجة الماسة إلى زعامة قوية توحد البلاد وتفرض الاستقرار. جاءت إصلاحات الإمبراطور أورليان لاحقًا (270–275م) لتوحيد الدولة جزئيًا، لكنه اغتيل قبل إتمام مهمته.

ثالثًا: الطريق إلى الحكم – صعود دقلديانوس

ولد دقلديانوس في إقليم دالماتيا***، من أصول غير أرستقراطية، وبرز في صفوف الجيش حتى أصبح قائدًا للحرس الإمبراطوري. بعد وفاة الإمبراطور نوميريان في ظروف غامضة عام 284م، اتهم

** الحرس البريتوري هو وحدة النخبة في الجيش الروماني تأسست في عهد أغسطس، وكانت في البداية بمثابة حرس شخصي للإمبراطور، لكنها أصبحت لاحقًا قوة سياسية حاسمة، تقوم بعزل وتعيين الأباطرة وفقًا لمصالحها، خصوصًا خلال أزمة القرن الثالث.
Grant, M. (1996). *The Roman Emperors: A Biographical Guide to the Rulers of Imperial Rome, 31 BC–AD 476* (pp. 118–119).

* كيان انفصالي ظهر بين 260–274م شمل مناطق الغال (فرنسا الحالية) وبريطانيا وأجزاء من إسبانيا، أسسه بوستوموس كرد فعل على ضعف السلطة المركزية في روما، واستمر قرابة 14 سنة قبل أن يعيد أورليان توحيدها بالإمبراطورية.
Drinkwater, J. F. (1987). *The Gallic Empire: Separatism and Continuity in the North-Western Provinces of the Roman Empire AD 260–274* (pp. 65–66).

** تدمر مدينة مزدهرة في الصحراء السورية، شكلت مركزًا تجاريًا هامًا ثم أصبحت قاعدة لسلطة محلية قوية في القرن الثالث. زينوبيا، أرملة أوديناتوس، وسّعت نفوذ تدمر لتسيطر على مصر وأجزاء من آسيا الصغرى، وأعلنت نفسها إمبراطورة حتى هزيمتها من أورليان عام 273م.
Southern, P. (2008). *Empress Zenobia: Palmyra's Rebel Queen* (pp. 45–47).

*** إقليم دالماتيا كان يقع على الساحل الشرقي للبحر الأدرياتيكي (حالياً جزء من كرواتيا). كان موطنًا للعديد من القادة العسكريين في أواخر العهد الروماني، ويتميز بتنوعه الإثني وتاريخه الحدودي
Wilkes, J. J. (1969). *Dalmatia* (pp. 22–24).

دقلديانوس قائد الحرس أبر (Aper) بقتله، وأعدمه شخصيًا أمام الجنود، ثم أعلن نفسه إمبراطورًا في نيقوميديا(Barnes, 1982, p. 25) [****].

كان خصمه كارينوس، شقيق نوميريان، يحكم في الغرب، لكن دقلديانوس تمكن من هزيمته في معركة نهر مارجوس سنة 285م، مما مهّد الطريق أمامه لتوحيد السلطة وتثبيت حكمه. وقد اتخذ من نيقوميديا مركزًا لحكمه، ليبتعد عن الفوضى في روما، ويقود من موقع استراتيجي يسمح له بمراقبة الشرق المضطرب.(Williams, 1985, p. 12)

رابعًا: الحاجة إلى إعادة بناء الدولة

كان دقلديانوس مدركًا لحجم التحديات التي تنتظره، ولذا سعى منذ البداية إلى إعادة بناء مؤسسات الدولة من الداخل. فقد أدرك أن السبب الرئيس لانهيار الإمبراطورية لم يكن مجرد الغزوات الخارجية، بل هشاشة النظام الإداري والاقتصادي والسياسي. وبهذا جاءت إصلاحاته اللاحقة كاستجابة مباشرة لما عايشه من فوضى، وكنتيجة طبيعية لتجربته في ظل الأزمات السابقة (Southern & Dixon, 1996, p. 89).

الخلفية والدوافع

أدرك دقلديانوس أن الإمبراطورية الرومانية أصبحت واسعة جدًا ومعقدة بما يفوق قدرة شخص واحد على حكمها بمفرده. بالإضافة إلى ذلك، كانت التهديدات المتعددة على الحدود، والتمردات الداخلية، تتطلب تدخلًا سريعًا من القيادة العسكرية في أكثر من مكان في الوقت ذاته (Potter, 2004, p. 56).كما أدرك أن انعدام نظام واضح للخلافة هو أحد الأسباب الأساسية في عدم الاستقرار السياسي، حيث كانت جيوش الأقاليم تتصارع على تنصيب الأباطرة.

هيكلة النظام الرباعي[*]

**** مدينة نيقوميديا (حاليًا إزميت في تركيا) كانت عاصمة إدارية مهمة في أواخر العهد الروماني، اختارها دقلديانوس مقرًا لإقامته ومركزًا إداريًا لإصلاحاته، ما يعكس أهمية الشرق في توازن القوى داخل الإمبراطورية

Barnes, T. D. (1982). *The New Empire of Diocletian and Constantine*, p. 25.

[*] هو نظام حكم أنشأه الإمبراطور دقلديانوس سنة 293م لتقاسم السلطة بين أربعة أباطرة: اثنين بلقب ***Augustus*** (كبار الأباطرة)، واثنين بلقب ***Caesar*** (أباطرة مساعدين وخلفاء مرتقبون). لم يُقسِّم هذا النظام الإمبراطورية رسميًا، بل نظّم إدارتها لتسريع الاستجابة للتهديدات، عبر توزيع المناطق الجغرافية على الأباطرة الأربعة.

Lenski, N. (2003). The Cambridge Companion to the Age of Constantine. Cambridge University Press, pp. 70–74.

في سنة 293م، قام دقلديانوس بتقسيم السلطة بين أربعة أباطرة، اثنين يحملان لقب *أوغسطس*** (Augustus)، وهما دقلديانوس نفسه ومكسيميان، واثنين برتبة *قيصر**** (Caesar)، وهما غاليريوس وكونستانتيوس كلوروس. تم اختيار القياصرة من قِبل الأوغسطسيْن كأبناء بالتبني، وكان من المفترض أن يخلفوا الأوغسطس في حال وفاته أو تقاعده، في انتقال سلس ومنظم للسلطة (Williams, 1985, p. 64).

كل إمبراطور كان مسؤولًا عن منطقة جغرافية محددة، ولكن من دون أن تُقسم الإمبراطورية رسميًا. فقد بقيت الدولة موحدة، ولكنها مُدارة إداريًا بطريقة أكثر فعالية، بحيث يكون كل حاكم قريبًا من التهديدات المحتملة في إقليمه. دقلديانوس تمركز في الشرق (نيقوميديا)، ومكسيميان في إيطاليا، وكونستانتيوس في الغرب (الغال و بريطانيا)، وغاليريوس في البلقان والحدود الشرقية.(Barnes, 1982, p. 51)

رمزية الحكم وتماسكه

ولتعزيز وحدة الحكم الرباعي، تم تصوير الأباطرة الأربعة على العملات والنُصُب***** بصورة متساوية ومتطابقة تقريبًا، حيث يرتدون الملابس نفسها، ويقفون بوضعيات متماثلة، في رسالة سياسية رمزية مفادها أن السلطة واحدة ومشتركة، حتى وإن كان الحكم موزعًا.(Fox, 1987, p. 305)

كما سعى دقلديانوس إلى إضفاء طابع مقدس على منصب الإمبراطور، من خلال تعزيز الطقوس والبروتوكولات الإمبراطورية، وادعاء أن الإمبراطور يتمتع بمكانة شبه إلهية، خاصة في الشرق، حيث اعتُبر ممثلًا للإرادة الإلهية******، ما عزز الهيبة والشرعية.(Drake, 2000, p. 112)

فعالية التيتراركية

حققت التيتراركية في بدايتها نجاحًا ملحوظًا في استعادة السيطرة على الأقاليم المتمردة، وكبح جماح التهديدات الخارجية، وإعادة الاستقرار الإداري. وقد سمح وجود أربعة قادة بتسريع اتخاذ القرار والتدخل العسكري عند الحاجة، دون انتظار الأوامر من العاصمة.(Lenski, 2003, pp. 73–74)

** لقب يُمنح للإمبراطور الأعلى في النظام الرباعي. استُمدّ من لقب أوغسطس، أول إمبراطور روماني. في التيتراركية، كان كل أوغسطس يعين قيصرًا ليخلفه لاحقًا.
Barnes, T. D (1982). *The New Empire of Diocletian and Constantine*. Harvard University Press, p. 44.

*** لقب يُمنح لنائب الأوغسطس وخليفته المحتمل في نظام الحكم الرباعي. القيصر يتم اختياره من قبل الأوغسطس بالتبني السياسي، ويرتقي للمنصب الأعلى عند تقاعد أو وفاة الأوغسطس.
Williams, S. (1985). *Diocletian and the Roman Recovery*. Routledge, p. 64.

**** تشير إلى سلسلة من التماثيل والنقوش التي تُظهر الأباطرة الأربعة بشكل متطابق، يرتدون اللباس الإمبراطوري ذاته ويُظهرون ذات الوقفة، في رمزية لوحدة السلطة وتقاسم الحكم. من أبرزها التمثال المشهور في كاتدرائية سان ماركو بالبندقية.
Fox, R. L (1987). *Pagans and Christians*. Penguin, p. 305.

***** عملية تعزيز قدسية الإمبراطور عبر طقوس ومراسم تقرّبه من الآلهة، خاصة في الشرق الروماني، حيث عُدّ الإمبراطور ممثلًا للإرادة الإلهية، مما رفع من هيبته وسلطته المطلقة.
Drake, H. A (2000). *Constantine and the Bishops: The Politics of Intolerance*. Johns Hopkins University Press, p. 112.

لكن بالرغم من هذه النجاحات، فقد واجه النظام صعوبات كبيرة بعد تقاعد دقلديانوس ومكسيميان[*] عام 305م، حيث اندلع صراع بين القياصرة الجدد حول الخلافة والسلطة، مما أظهر أن النظام لم يكن محصنًا ضد الطموحات الفردية والولاءات العسكرية .(Heather, 2005, p. 109) كما لم يكن مقبولًا لجميع النخب الرومانية أن تُقسم السلطة بهذا الشكل.

ثالثًا: الإصلاحات الإدارية

تقسيم إداري جديد

أولى خطوات دقلديانوس في إصلاح الإدارة كانت إعادة تقسيم الولايات[**]. فقد رأى أن بعض الولايات أصبحت مترامية الأطراف ويصعب إدارتها بفعالية، لذلك قام بتقسيم عدد منها إلى وحدات أصغر، حتى بلغ عدد الولايات في عهده نحو 100 ولاية بعد أن كانت لا تتجاوز 50 (Jones, 1964, p. 35). وقد ساعد هذا التقسيم على تسهيل الإشراف المباشر وتعزيز الرقابة على المسؤولين المحليين.

كما أنشأ طبقتين إداريتين جديدتين فوق الولايات، هما :الأبرشيات[***] (*Dioeceses*)، التي ضمت كل منها مجموعة من الولايات، والولايات الإمبراطورية الكبرى[****]، لتسهيل الإشراف على الأقاليم. وكان يشرف على الأبرشيات موظف يُعرف بـ"نائب الأبرشية(*vicarius*) "[*****]، يتبع مباشرة الإمبراطور أو أحد الأباطرة في نظام الحكم الرباعي.(Potter, 2004, p. 59)

---

[*] في خطوة غير مسبوقة، تقاعد الإمبراطوران الكبيران دقلديانوس ومكسيميان سنة 305م طواعيةً، وتسلّم القياصرة الحكم. لكن هذه الخطوة أدت إلى صراع على السلطة بين الخلفاء، مما كشف عن هشاشة النظام الرباعي أمام الطموحات الشخصية.
Heather, P. (2005). *The Fall of the Roman Empire: A New History of Rome and the Barbarians*. Oxford University Press, p. 109.

[**] كانت الوحدة الإدارية الأساسية في الإمبراطورية الرومانية، وتُدار من قبل حاكم محلي (praeses أو proconsul)، وقد تنوّعت في الحجم والمسؤوليات. قبل إصلاحات دقلديانوس، كانت بعض الولايات شاسعة جدًا، ما جعل إدارتها صعبة، وهو ما استدعى تقسيمها.
Jones, A. H. M. (1964). *The Later Roman Empire 284–602: A Social, Economic and Administrative Survey*. Johns Hopkins University Press, p. 35.

[***] هي وحدات إدارية كبرى جديدة أنشأها دقلديانوس، تضم كل منها عدة ولايات. جاءت هذه البنية الوسيطة لتسهيل الرقابة والتحكم الإداري، وشكّلت حلقة وصل بين الولايات والإدارة الإمبراطورية العليا.
Potter, D. S. (2004). *The Roman Empire at Bay: AD 180–395*. Routledge, p. 59.

[****] لم تكن وحدة إدارية رسمية محددة الاسم في الوثائق الرومانية، بل يُقصد بها في هذا السياق المجموعات الأوسع التي أدارها الأباطرة بشكل مباشر، خاصة تلك المرتبطة بالأخطار الحدودية أو بالأهمية الاستراتيجية القصوى.
Jones, A. H. M. (1964). *The Later Roman Empire 284–602*. Johns Hopkins University Press, p. 36.

[*****] هو الموظف الإداري الذي كان يترأس الأبرشية، ويعمل كنائب مباشر للإمبراطور أو أحد الأباطرة. كانت وظيفته الأساسية الإشراف على حكّام الولايات الواقعة ضمن الأبرشية، وضمان تنفيذ السياسات الإمبراطورية فيها.
Potter, D. S. (2004). *The Roman Empire at Bay: AD 180–395*. Routledge, p. 59.

الفصل بين السلطة المدنية والعسكرية*

في محاولة للحد من تمرد القادة العسكريين، فصل دقلديانوس السلطة المدنية عن العسكرية، حيث أصبح لكل إقليم قائد عسكري مستقل عن الحاكم المدني. فالحاكم أصبح مسؤولًا عن القضاء والإدارة، بينما تولّى قائد عسكري (*dux*) مسؤولية حماية الحدود (Southern & Dixon, 1996, p. 101). وقد ساعد هذا الإجراء في تقليص نفوذ القادة العسكريين الذين كانوا في الماضي يجمعون بين السلطتين، مما سهّل عليهم الوصول إلى الحكم عبر الانقلابات.

تقوية جهاز الدولة المركزي

عزّز دقلديانوس من مركزية الدولة من خلال توسيع بيروقراطية الدولة الرومانية بشكل غير مسبوق. فقد ازداد عدد الموظفين العاملين في الجهاز الإداري، وتوسعت مسؤولياتهم، كما تطور الهيكل الهرمي للسلطة. وصار لكل منصب اختصاص محدد، مع إرساء مبدأ الهرمية الإدارية**، حيث يخضع كل مستوى لمن فوقه مباشرة في التراتب.(Williams, 1985, p. 76)

كما أُنشئت مؤسسات مختصة بالرقابة والتفتيش عُرفت باسم *agentes in rebus*، ***وهي أشبه بجهاز تفتيش إمبراطوري يتابع أداء الموظفين ويبلغ عن أي خلل إداري أو فساد (Barnes, 1982, p. 68).

تعقيد النظام الإداري – بين الفعالية والبيروقراطية

رغم أن هذه الإصلاحات عززت السيطرة الإمبراطورية على الأقاليم، فإنها أدت أيضًا إلى تعقيد كبير في الهيكل الإداري. فقد اشتكى بعض المؤرخين من أن الجهاز البيروقراطي أصبح ضخمًا إلى

* هو إجراء إداري عمد فيه دقلديانوس إلى تفريق الصلاحيات بين الحاكم المدني والقائد العسكري في الإقليم الواحد، بحيث لم يعد الشخص نفسه يتولى القضاء والإدارة والدفاع معًا، بل أوكلت المهام القضائية والإدارية إلى الحاكم (praeses)، بينما أوكلت القيادة العسكرية إلى ضابط مستقل يُعرف بـ **dux**. وقد كان الهدف من ذلك الحدّ من تمرد القادة العسكريين وتقليص فرص استغلالهم للسلطة المجمعة للوصول إلى العرش.
Southern, P. & Dixon, K. R. (1996). *The Late Roman Army*. Yale University Press, p. 101.

** هو مبدأ تنظيمي يقضي بوجود تسلسل صارم للسلطة في الجهاز الإداري، بحيث يخضع كل مسؤول لمن هو أعلى منه مباشرة، وتكون القرارات والتعليمات متدرجة من قمة الهرم الإمبراطوري حتى أدناه. وقد أدى تطبيق هذا المبدأ في عهد دقلديانوس إلى مزيد من الانضباط والفعالية في الإدارة، لكنه تسبب أيضًا في تعقيد بيروقراطي كبير.
Williams, S. (1985). *Diocletian and the Roman Recovery*. Routledge, p. 76.

*** مصطلح لاتيني يُطلق على فئة من الموظفين المتجولين في الجهاز الإمبراطوري، ظهروا بشكل واضح في أواخر القرن الثالث الميلادي. كانوا أشبه بجهاز تفتيش ومخابرات بيروقراطي يتبع مباشرة البلاط الإمبراطوري، ومهمتهم مراقبة أداء المسؤولين المحليين، ونقل الرسائل الرسمية، ورفع التقارير بشأن الفساد أو الإهمال الإداري. وقد ساهموا في تعزيز المركزية والرقابة.
Barnes, T. D. (1982). *The New Empire of Diocletian and Constantine*. Harvard University Press, p. 68.

درجة أنه استنزف موارد الدولة، حيث تطلب الأمر إنفاقًا متزايدًا على رواتب الموظفين ونفقات الإدارة (Lenski, 2003, p. 81). كما أدى ذلك إلى زيادة التدخل الحكومي في حياة المواطنين، لا سيما في الشؤون الاقتصادية.

أثر الإصلاحات الإدارية على استقرار الدولة

لقد ساهمت هذه الإصلاحات بشكل كبير في استقرار الإمبراطورية بعد قرن من الأزمات. فقد أصبحت الدولة أكثر قدرة على الاستجابة للتهديدات الإدارية والعسكرية، وأضحى لدى الأباطرة أدوات فعالة لفرض السيطرة ومتابعة تنفيذ القوانين. وكانت هذه الإصلاحات أحد الأعمدة التي بُنيت عليها إصلاحات قسطنطين لاحقًا، مما يبرز الأثر العميق لسياسات دقلديانوس على المدى الطويل (Heather, 2005, p. 115).

رابعًا: الإصلاحات الاقتصادية

شكّلت الأزمات الاقتصادية التي ضربت الإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث الميلادي تهديدًا وجوديًا للدولة، إذ تفاقمت معدلات التضخم، وتدهورت قيمة العملة، وانتشرت المجاعات والاضطرابات الاجتماعية. وقد سعى الإمبراطور دقلديانوس إلى مواجهة هذه التحديات عبر سلسلة من الإصلاحات الاقتصادية، كانت أبرزها محاولة تثبيت الأسعار وإصلاح النظام النقدي والضريبي. ورغم الطابع السلطوي لهذه الإجراءات، فإنها شكلت أول محاولة شاملة من الدولة الرومانية للسيطرة على الاقتصاد عبر التدخل المركزي المنظّم.

إصلاح النظام النقدي

كان النظام النقدي الروماني يعاني من تدهور حاد منذ منتصف القرن الثالث، حيث لجأ الأباطرة إلى تقليص نسبة الفضة في العملة (الدينار يوس)، مما تسبب بانخفاض قيمتها وزيادة التضخم. وقد سعى دقلديانوس إلى إصلاح الوضع بإعادة سك عملة جديدة مستقرة ذات قيمة محددة، وأصدر عام 294م عملة ذهبية جديدة تُعرف باسم الآوريئوس (aureus)، وعملة فضية وأخرى برونزية بمواصفات محددة (Jones, 1964, p. 121).

ورغم أن هذه العملات صُممت لتثبيت الاقتصاد، إلا أن قيمتها السوقية لم تكن دائمًا مطابقة لقيمتها الرسمية، بسبب استمرار المضاربة والاحتكار في الأسواق، مما حدّ من فاعلية هذا الإصلاح (Williams, 1985, p. 89).

مرسوم تحديد الأسعار

من أبرز محاولات دقلديانوس الاقتصادية إصدار مرسوم تحديد الأسعار عام 301م (Edictum de Pretiis Rerum Venalium)*. وقد تضمن المرسوم لائحة ضخمة حددت الأسعار القصوى لأكثر من 1000 سلعة وخدمة، شملت المواد الغذائية، وأجور العمال، والأدوات الصناعية، وحتى أسعار النقل والمهن الطبية (Potter, 2004, p. 70). كان الهدف من هذا المرسوم السيطرة على التضخم والاحتكار، وفرض العدالة في التعاملات التجارية.

وقد رافق المرسوم تهديدات بعقوبات صارمة تصل إلى الإعدام للمخالفين، لكن في الواقع لم يُطبق هذا المرسوم بفعالية، بل أدى إلى آثار عكسية تمثلت في اختفاء العديد من السلع من السوق، وتحول جزء كبير من النشاط الاقتصادي إلى السوق السوداء* (Barnes, 1982, p. 74). وقد وصفه بعض المؤرخين بأنه "أول محاولة فاشلة لتطبيق اقتصاد موجّه في تاريخ الإمبراطورية".

إصلاح النظام الضريبي

أدرك دقلديانوس أن نظام الضرائب غير المتوازن كان من أسباب الانهيار المالي للدولة، فقام بإصلاح شامل يعتمد على مبادئ أكثر عدالة وثباتًا. قام أولًا بإجراء إحصاء شامل للسكان والأراضي في أنحاء الإمبراطورية، بهدف تحديد الطاقة الإنتاجية لكل منطقة وربط الضرائب بها (Southern &

---

* وهو مرسوم رسمي أصدره الإمبراطور دقلديانوس سنة 301م، يُعد من أوسع محاولات التدخل الاقتصادي في تاريخ الإمبراطورية الرومانية. يترجم العنوان من اللاتينية إلى "مرسوم أسعار السلع القابلة للبيع"، وقد تضمّن تحديد سقف الأسعار لأكثر من ألف سلعة وخدمة، من بينها المواد الغذائية، الملابس، أجور الحرفيين، النقل، والسلع الصناعية والطبية.
كان الهدف الأساسي من المرسوم هو كبح جماح **التضخم** المستشري في أواخر القرن الثالث الميلادي، وتقليص **الاحتكار التجاري**، وتحقيق شكل من أشكال **العدالة الاقتصادية**. وقد عاقب المرسوم بشدة كل من خالف الأسعار المحددة، بعقوبات وصلت إلى الإعدام. إلا أن التطبيق الفعلي للمرسوم واجه صعوبات، بسبب انفصاله عن واقع السوق، مما أدى إلى **انكماش اقتصادي** وانتشار السوق السوداء، وقد اعتبره عدد من الباحثين نموذجًا مبكرًا لفشل الاقتصاد الموجّه في العالم القديم.
Harvard University Press, p. 74. .The New Empire of Diocletian and Constantine .(1982) .Barnes, T. D
Routledge, p. 70 .The Roman Empire at Bay, AD 180–395 .(:Potter, D. S. (2004

* السوق السوداء (black market): تشير إلى النشاطات الاقتصادية غير الرسمية أو غير القانونية التي تتم خارج نطاق الرقابة الحكومية، وخصوصًا في فترات الأزمات الاقتصادية أو عندما تُفرض قيود مشددة على الأسعار والتجارة. في سياق الإمبراطورية الرومانية، نشأت السوق السوداء كرد فعل مباشر على مرسوم تحديد الأسعار الذي أصدره دقلديانوس عام 301م، إذ امتنع التجار عن بيع السلع بالسعر الرسمي خوفًا من العقوبات، فلجأوا إلى إخفاء البضائع وبيعها بأسعار مرتفعة خارج القنوات القانونية، مما أدى إلى اختفاء سلع أساسية من الأسواق النظامية وتفاقم الأزمة الاقتصادية.
Harvard University Press, p. .The New Empire of Diocletian and Constantine .(1982) .Barnes, T. D
.Routledge, p. 70 .The Roman Empire at Bay, AD 180–395 .(Potter, D. S. (2004
Cambridge University Press, pp. .The Cambridge Companion to the Roman Economy .(Scheidel, W. (2012)
187–189.

(Dixon, 1996, p. 109). وبهذا نشأ ما يُعرف بنظام الجزية (capitatio) وضريبة الأرض (jugatio).

تم تقسيم الضرائب بحسب المساحة المزروعة وعدد الأفراد العاملين، مع تحديد نوع الضريبة إما بالنقد أو العَين، مما أعطى للدولة تقديرًا أدق للإيرادات المطلوبة. كما فُرضت ضرائب على الحرفيين والتجار وفق قدرتهم الاقتصادية (Lenski, 2003, p. 86).

تثبيت الفئات الاجتماعية في وظائفها

ضمن السياسة الاقتصادية أيضًا، أصدر دقلديانوس قرارات تُجبر الحرفيين والفلاحين على البقاء في وظائفهم وأماكنهم الجغرافية، بحيث يتحمل الأبناء نفس مهنة آبائهم. وكان الهدف من هذه السياسة الحفاظ على استقرار الإنتاج وضمان تحصيل الضرائب من نفس الفئات دون انقطاع (Heather, 2005, p. 128). وقد اعتُبرت هذه السياسة بداية لما سيُعرف لاحقًا بنظام "الإقطاع" في العصور الوسطى.

تقييم عام للإصلاحات الاقتصادية

رغم نوايا دقلديانوس الإصلاحية، فإن العديد من إجراءاته لم تؤتِ ثمارها كما كان مرجوًا. فمرسوم الأسعار فشل في تحقيق الاستقرار، والعملة الجديدة لم تستطع الصمود أمام الأزمات، والضرائب صارت عبئًا ثقيلًا على المزارعين والفقراء. ومع ذلك، فقد أرست هذه الإصلاحات الأسس لإدارة اقتصادية مركزية حاول قسطنطين وأباطرة لاحقون البناء عليها (Drake, 2000, p. 119).

الإصلاحات العسكرية في عهد دقلديانوس

شهدت الإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث الميلادي تدهورًا حادًا في قدراتها العسكرية، بفعل الحروب الأهلية، وغزوات الشعوب البربرية، والانقسامات الداخلية. ولما تولى دقلديانوس الحكم عام 284م، كانت الجبهة الشرقية مهددة من الفرس الساسانيين، والغربية عرضة لهجمات القبائل الجرمانية. لذا جعل من إصلاح الجيش أولوية قصوى لضمان بقاء الإمبراطورية.

إعادة هيكلة الجيش

أجرى دقلديانوس تعديلات جذرية على البنية التنظيمية للجيش، فعمل على زيادة عدد الجنود وتقسيم القوات إلى وحدات صغيرة أكثر مرونة في الحركة والانتشار. وتقدر بعض الدراسات أن عدد القوات في عهده تضاعف ليبلغ حوالي 400,000 جندي (Jones, 1964, p. 75).

وقد أُعيد تنظيم الجيش إلى نوعين رئيسيين:

- الجيش الحدودي (Limitanei): يتمركز على طول حدود الإمبراطورية، مهمته الدفاع ضد التوغلات المباشرة.
- الجيش المتنقل (Comitatenses):* قوات احتياطية متنقلة تنتقل بسرعة بين الجبهات عند الحاجة (Southern & Dixon, 1996, p. 130).

هذا الفصل منح الدولة قدرة أكبر على التصدي للغزوات المفاجئة ومعالجة الثغرات الدفاعية بشكل ديناميكي.

تعزيز التحصينات الحدودية

أولى دقلديانوس أهمية كبيرة لتحصين الحدود، خاصة في مناطق الريف الشمالي والشرقي. فبنى العديد من الحصون الجديدة وأعاد ترميم القديمة، مثل التحصينات على نهر الدانوب والجبهة السورية (Potter, 2004, p. 81). كما أنشأ شبكة من الأبراج والطرق العسكرية التي تربط بين المواقع المختلفة، مما سمح بسرعة الاستجابة العسكرية وتحقيق الاتصال بين الوحدات الدفاعية.

وقد وُظفت هذه التحصينات ليس فقط للردع العسكري، بل أيضًا كرمز للهيبة الإمبراطورية أمام الشعوب المجاورة.

إصلاح جهاز التجنيد

في سبيل تأمين التدفق الدائم للقوات، أعاد دقلديانوس هيكلة جهاز التجنيد العسكري. ففرض نظامًا أكثر صرامة لتجنيد المواطنين، وألزم بعض الفئات المهنية بتقديم أفراد للخدمة العسكرية بشكل منتظم، مثل كبار ملاك الأراضي الذين أصبحوا مسؤولين عن تجهيز عدد معين من الجنود سنويًا (Williams, 1985, p. 96).

كما فرض التجنيد الإجباري على أبناء الجنود السابقين، بحيث تتحول الخدمة إلى التزام وراثي، مما أدى إلى بروز طبقة اجتماعية شبه مغلقة من العسكريين (Lenski, 2003, p. 91).

* الجيش المتنقل *(Comitatenses)*: مصطلح يُطلق على القوات العسكرية المتحركة التي نشأت في أواخر القرن الثالث الميلادي ضمن إصلاحات دقلديانوس، وازدادت أهميتها في عهد قسطنطين. كانت هذه الوحدات منفصلة عن الجيش الحدودي (Limitanei)، وأكثر تدريبًا وتجهيزًا، وتُعد بمثابة قوات احتياط استراتيجية قادرة على التحرك السريع نحو أي جبهة مهددة داخل حدود الإمبراطورية. تمركزت هذه القوات غالبًا في مواقع مركزية، ما أتاح للدولة مرونة أكبر في مواجهة التهديدات المتعددة، وساهم في بروز مفهوم الدفاع المتحرك في الفكر العسكري الروماني المتأخر.

Yale University Press, pp. 130–132. .The Late Roman Army .(1996) .Dixon, K. R & ,.Southern, P Basil .The Later Roman Empire 284–602: A Social, Economic and Administrative Survey .(Jones, A. H. M. (1964 Blackwell, Vol. 1, pp. 74–76.

Oxford University Press, pp. 23–25 .Warfare in Roman Europe, AD 350–425 .(Elton, H. (1996

تعزيز السلطة العسكرية المركزية*

قام دقلديانوس بفصل قيادة الجيش عن الإدارة المدنية (كما ورد سابقًا)، لكنه في الوقت ذاته عزز القيادة العسكرية المركزية تحت إشرافه أو إشراف زملائه الأباطرة في نظام الحكم الرباعي. وقد ساهم هذا في ضبط تحركات الجنرالات ومنعهم من الطموح السياسي كما كان يحدث سابقًا، إذ كان العديد من القادة يعلنون أنفسهم أباطرة بدعم جيوشهم (Barnes, 1982, p. 79).

تعزيز الروح القتالية والانضباط

عمل دقلديانوس على فرض الانضباط الصارم داخل الجيش، من خلال قوانين مشددة، ومكافآت وحوافز للجنود المتفوقين. كما رفع من مكانة الخدمة العسكرية كواجب وطني مقدس، ووفر تسهيلات اجتماعية واقتصادية للعسكريين، مثل الإعفاء من بعض الضرائب، ومنحهم أراضي بعد التقاعد (Heather, 2005, p. 135).

تقييم عام للإصلاحات العسكرية

رغم أن بعض هذه الإجراءات كانت صارمة أو أثقلت كاهل المجتمع، فإنها أثمرت على المدى القصير في استعادة الاستقرار العسكري للإمبراطورية. فقد شهدت حدود الإمبراطورية قدرًا من الأمان في السنوات التالية، وتمكنت الجيوش الرومانية من التصدي للعديد من التهديدات الخارجية.

ويعدّ المؤرخون هذه الإصلاحات الأساس الذي بنى عليه الإمبراطور قسطنطين لاحقًا جيشه، مما يبرز عمق تأثير دقلديانوس على المؤسسة العسكرية الرومانية (Drake, 2000, p. 126).

الاضطهاد الديني للمسيحيين في عهد دقلديانوس

شكّل الاضطهاد الذي تعرض له المسيحيون في عهد الإمبراطور دقلديانوس واحدة من أكثر الفصول دموية في تاريخ الكنيسة المبكرة، ويُعرف تاريخيًا بـ"الاضطهاد الكبير" (Persecutio Magna). جاء هذا الاضطهاد في وقت كانت فيه المسيحية قد بدأت تنتشر بشكل واسع في مختلف أقاليم الإمبراطورية، مما أثار مخاوف السلطة الحاكمة من تفكك الولاء الديني والسياسي للإمبراطور، باعتباره الممثل الشرعي للآلهة الرومانية.

**تعزيز السلطة العسكرية المركزية*: يُشير هذا المصطلح إلى عملية إعادة تنظيم القيادة العسكرية العليا في عهد دقلديانوس بحيث تصبح خاضعة مباشرة للإمبراطور أو أحد زملائه في نظام الحكم الرباعي، مع فصلها الكامل عن الإدارة المدنية المحلية. هدف هذا التعديل كان تقليص استقلالية القادة العسكريين الإقليميين، ومنعهم من استخدام جيوشهم لأغراض سياسية أو للمطالبة بالعرش، كما حدث مرارًا في القرن الثالث الميلادي. وقد أتاح هذا الإصلاح تحكماً أكثر فعالية في الجيش، وقلّل من الفوضى والانقلابات العسكرية، ومهّد الطريق لترسيخ مبدأ الولاء للسلطة الإمبراطورية المركزية.

Barnes, T. D .(1982) .The New Empire of Diocletian and Constantine Harvard University Press, pp. 78–80. (Potter, D. S. (2004) .The Roman Empire at Bay: AD 180–395 Routledge, pp. 279–281. Lenski, N. (2003) .Failure of Empire: Valens and the Roman State in the Fourth Century A.D University of California Press, pp. 98–100

السياق الأيديولوجي والسياسي للاضطهاد

كان دقلديانوس، منذ بداية حكمه، يعمل على استعادة عظمة الديانة الوثنية الرومانية، والتي رأى فيها أساس وحدة الدولة واستقرارها، وذلك في ظل تفشي الأزمات السياسية والعسكرية (Potter, 2004, p. 85). وفي سياق إعادة بناء الإمبراطورية، تبنّى نموذجًا تقليديًا للشرعية الإمبراطورية،* يرتكز على التقوى الوثنية والطاعة للآلهة.

وبما أن المسيحيين رفضوا تقديم القرابين والولاء الديني للإمبراطور، فقد اعتُبروا خطرًا على وحدة الدولة، وأعداء للنظام القائم (Barnes, 1982, p. 98). كما ساهم كبار المستشارين الوثنيين، خصوصًا غاليريوس (Galerius)، في دفع دقلديانوس نحو اتخاذ إجراءات صارمة ضدهم (Drake, 2000, p. 139).

المراسيم الأربعة ضد المسيحيين

ابتداءً من عام 303م، أصدر دقلديانوس أربعة مراسيم متتالية تهدف إلى القضاء على الوجود المسيحي المؤسسي في الإمبراطورية. وقد تضمنت هذه المراسيم البنود التالية:

- المرسوم الأول (فبراير 303م): أمر بهدم الكنائس، وحرق الكتب المقدسة، ومنع التجمعات المسيحية، وتجريد المسيحيين من مناصب الدولة (Jones, 1964, p. 104).
- المرسوم الثاني: أمر بسجن قادة الكنيسة الذين رفضوا التخلي عن إيمانهم.
- المرسوم الثالث: أتاح إطلاق سراح القادة المسيحيين بشرط تقديمهم ذبائح للآلهة الرومانية.
- المرسوم الرابع (أواخر 303م): فرض على جميع سكان الإمبراطورية تقديم الذبائح، بما فيهم المسيحيون، تحت طائلة السجن أو الإعدام (Lenski, 2003, p. 99).

أشكال الاضطهاد والممارسات القمعية

أدت هذه السياسات إلى موجات متلاحقة من العنف والتعذيب والقتل، استهدفت رجال الدين والمؤمنين العاديين على حد سواء. فقد أُحرقت كنائس، وسُجن آلاف المسيحيين، وأُعدم عدد كبير منهم بطرق وحشية مثل الحرق، والصلب، والرجم، وقطع الرؤوس (Frend, 1965, p. 503).

---

*نموذج تقليدي للشرعية الإمبراطورية: يشير هذا المصطلح إلى النمط الكلاسيكي في تبرير السلطة السياسية في الإمبراطورية الرومانية، والذي يعتمد على فكرة أن الإمبراطور هو ممثل الآلهة على الأرض، ويحكم بتفويض إلهي مستمد من ولائه للآلهة واحترامه للتقاليد الدينية الوثنية. هذا النموذج كان يقوم على عناصر مثل تقديم القرابين، إقامة الشعائر الرسمية، وترويج صورة الإمبراطور بوصفه الحامي الأول للديانة الرسمية، وبالتالي حامي وحدة الدولة. وقد أعاد دقلديانوس إحياء هذا النموذج بعد قرن من الأزمات السياسية والانقلابات، ليؤسس شرعيته على التقوى الوثنية بدلاً من الدعم العسكري أو الشعبي فحسب.

Potter, D. S. (2004). The Roman Empire at Bay: AD 180–395. Routledge, pp. 84–86.

MacMullen, R. (1984). Paganism in the Roman Empire. Yale University Press, pp. 92–95.

Drake, H. A. (2000). Constantine and the Bishops: The Politics of Intolerance. Johns Hopkins University Press, p. 57

واشتهرت بعض المدن مثل نيقوميديا، وقرطاج، والإسكندرية بوقوع مجازر جماعية فيها. كما برزت فئة "الشهداء" الذين مجدتهم الكنيسة لاحقًا في تراثها العقائدي والليتورجي (Heather, 2005, p. 147).

مواقف مختلفة داخل السلطة

ورغم أن دقلديانوس كان المحرّك الأول للاضطهاد، إلا أن تنفيذ السياسات القمعية اختلف باختلاف الأقاليم والأباطرة المشاركين في التيتراركية*. فقد كان غاليريوس أشدهم قسوة، بينما كان قسطنطيوس كلوروس متسامحًا نسبيًا، حيث لم ينفذ المراسيم بنفس الحزم في مناطقه الغربية (Williams, 1985, p. 112).

ويُلاحظ أن دقلديانوس نفسه بدأ يتردد في تطبيق القمع مع تقدمه في العمر، خصوصًا بعد إصابته بالمرض، ليترك المهمة لاحقًا لغاليريوس الذي استمر في حملات الاضطهاد حتى عام 311م (Barnes, 1982, p. 102).

نهاية الاضطهاد وإرهاصات التحول الديني

أدى فشل السياسات القمعية إلى إدراك السلطة الرومانية بأن القضاء على المسيحية أصبح مستحيلًا. وفي عام 311م، أصدر غاليريوس مرسوم التسامح (Edict of Toleration)، الذي أنهى رسميًا الاضطهاد وسمح للمسيحيين بممارسة شعائرهم (Drake, 2000, p. 143).

بعدها بسنتين فقط، أصدر قسطنطين مرسوم ميلانو عام 313م، الذي أقر حرية الأديان، مما مهّد الطريق لتحول المسيحية إلى ديانة رسمية في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس لاحقًا.

التقييم التاريخي للاضطهاد

يُجمع معظم الباحثين على أن اضطهاد دقلديانوس كان أوسع وأعنف اضطهاد رسمي تعرض له المسيحيون في الإمبراطورية الرومانية، لكنه أيضًا كان نقطة تحول حاسمة في العلاقة بين الكنيسة والدولة. فقد خرجت المسيحية من هذا الاضطهاد أكثر تنظيمًا وتماسكًا، وأصبحت الشهادة في سبيل الإيمان حجر أساس في البناء العقائدي للمسيحية (Frend, 1965, p. 511).

* التيتراركية (Tetrarchy) هو نظام حكم أنشأه الإمبراطور دقلديانوس في نهاية القرن الثالث الميلادي، حيث قسّم السلطة الإمبراطورية بين أربعة حكام: إمبراطوران كبار (الأوغسطوس) وإمبراطوران صغار (السيسير)، بهدف تحسين إدارة الإمبراطورية الرومانية والتصدي للأزمات السياسية والعسكرية. وقد ساعد هذا النظام على استقرار الحكم وتقسيم المسؤوليات بين الأباطرة الأربعة، رغم أن التنفيذ والتأثير اختلفا باختلاف الأقاليم والأباطرة المشاركين (Williams, 1985, ص. 47-49).

سابعًا: تنازل دقلديانوس عن العرش

يُعد تنازل الإمبراطور دقلديانوس عن العرش في عام 305م حدثًا فريدًا في تاريخ الإمبراطورية الرومانية، إذ لم يسبق لإمبراطور روماني أن تخلى طوعًا عن سلطته الكاملة. وقد أثار هذا الحدث استغراب المؤرخين القدماء والمحدثين على حد سواء، نظرًا لطبيعة الحكم المطلق في روما، وتعلّق الأباطرة بالسلطة. غير أن هذا القرار كان نتيجة لتراكمات سياسية، وشخصية، وصحية، فضلًا عن كونه انسجامًا مع الرؤية التنظيمية التي تبناها دقلديانوس منذ بداية إصلاحاته.

الأسباب الصحية والنفسية للتنازل*

تشير المصادر القديمة، مثل المؤرخ لاكتانتيوس، إلى أن دقلديانوس أُصيب بمرض شديد في أواخر عام 304م، جعله غير قادر على الاضطلاع بشؤون الحكم (Lactantius, *De Mortibus Persecutorum*, 18). وقد تم نقل دقلديانوس إلى نيقوميديا لتلقي العلاج، وقضى فترة من العزلة، بعيدًا عن الحكم المباشر، مما أسهم في تفكيره بالتخلي عن العرش.(Potter, 2004, p. 297)

كما يرى بعض الباحثين أن الحالة النفسية المتدهورة للإمبراطور، نتيجة فشل بعض سياساته القمعية، خصوصًا ضد المسيحيين، وتعاظم التوتر داخل النظام الرباعي، قد لعبت دورًا في قراره النهائي بالتنحي.(Barnes, 1982, p. 117)

الخلفية السياسية للقرار

منذ تأسيسه نظام التيتراركية، حرص دقلديانوس على ترسيخ مبدأ تقاسم السلطة وضمان الاستمرارية السلمية للانتقال. ولذلك كان قراره بالتخلي عن العرش في الأول من مايو سنة 305م جزءًا من هذا المشروع السياسي، إذ قام بتنظيم انتقال منظم للسلطة، بحيث استقال هو وشريكه مكسيميانوس في نفس اليوم، وتم تعيين قسطنطيوس كلوروس وغاليريوس كأغوسطَيين جدد (Heather, 2005, p. 152).

* تشير "الأسباب الصحية والنفسية للتنازل" إلى العوامل الجسدية والنفسية التي أثرت في قرار الإمبراطور دقلديانوس بالتخلي عن العرش عام 305م. فمن الناحية الصحية، وثقت المصادر التاريخية إصابة دقلديانوس بمرض شديد أضعف قدرته على الحكم، مما اضطره إلى العزلة وتلقي العلاج في نيقوميديا (Lactantius, *De Mortibus Persecutorum*, 18). أما من الناحية النفسية، فقد كانت الحالة النفسية للإمبراطور متدهورة نتيجة التوترات السياسية داخل التيتراركية وفشل بعض سياساته القمعية، خاصة ضد المسيحيين، ما عزز شعوره بالإحباط ودفعه إلى اتخاذ قرار التنحي عن السلطة (Barnes, 1982, pp. 116-117).

وقد تم هذا الانتقال في نيكوميديا، حيث ألقى دقلديانوس خطابًا علنيًا أعلن فيه تنازله عن الحكم، وهو ما لم يكن له سابقة مباشرة في تقاليد الإمبراطورية، مما أكسب الحدث طابعًا استثنائيًا (Lenski, 2003, p. 128).

ردود الفعل على التنازل

قوبل القرار بدهشة واسعة، خاصة من قِبل النخبة العسكرية والسياسية التي لم تتوقع أن يتنازل الإمبراطور القوي عن سلطته بهذه السهولة. وقد عبر المؤرخ أوْريليوس فيكتور عن استغرابه قائلاً إن هذا الفعل "يليق بفيلسوف أكثر منه بإمبراطور." (Aurelius Victor, *Epitome de Caesaribus*, 39)

كما أثار القرار استياء البعض، وعلى رأسهم قسطنطين بن قسطنطيوس، الذي كان يأمل أن يُعيَّن أوغسطًا مباشرة، لكنه أُقصي لصالح شخصيات أخرى مدعومة من غاليريوس (Williams, 1985, p. 126).

الحياة بعد التنازل*

توجّه دقلديانوس بعد استقالته إلى مسقط رأسه في سبالاتوم (سبليت الحالية في كرواتيا)، حيث بنى قصرًا ضخمًا أصبح لاحقًا نواة مدينة سبليت القديمة. وهناك عاش سنواته الأخيرة في عزلة شبه تامة، يعتني بحديقته، ويُقال إنه رفض العودة إلى الحكم عندما طُلب منه ذلك لاحقًا (Jones, 1964, p. 112).

ويذكر أحد المؤرخين أن دقلديانوس قال عند محاولة إقناعه بالعودة إلى العرش" :لو رأيتم الكروم التي زرعتها، لما طلبتم مني العودة إلى الحكم." (Potter, 2004, p. 299) !"

الأثر السياسي لقرار التنازل

* تشير عبارة "الحياة بعد التنازل" إلى الفترة التي أعقبت تنحي الإمبراطور دقلديانوس عن العرش في عام 305م، حيث انسحب إلى مسقط رأسه في سبالاتوم (السبليت الحالية في كرواتيا) ليعيش حياةً شبه منعزلة بعيدًا عن السياسة والسلطة. خلال هذه الفترة، بنى قصرًا ضخمًا أصبح فيما بعد نواة مدينة سبليت القديمة، وعاش حياة هادئة يعتني بحديقته، ورفض العودة إلى الحكم رغم محاولات إقناعه، مما يعكس تراجعه عن السعي إلى السلطة والالتزام بأسلوب حياة مختلف عن حياة الإمبراطور السابقة (Jones, 1964, ص. 112؛ Potter, 2004, ص. 299).

رغم أن تنازل دقلديانوس كان منظمًا ومخططًا له، فإن النظام الرباعي سرعان ما انهار بعد سنوات قليلة من مغادرته المشهد السياسي، نتيجة الصراعات بين خلفائه على السلطة. وقد كشف هذا الانهيار هشاشة النظام الرباعي عند غياب شخصية قوية مثل دقلديانوس، حيث اندلعت حروب أهلية قادت في النهاية إلى انفراد قسطنطين بالحكم.(Heather, 2005, p. 154)

ومع ذلك، ظل تنازله علامة فارقة في التاريخ الروماني، حيث قدّم نموذجًا مختلفًا لإدارة السلطة، يقوم على مفهوم الواجب العام والتنظيم لا على التشبث الدائم بالمُلك.

الخاتمة

يمكن استخلاص جملة من النتائج الجوهرية التي تعكس أهمية عهد الإمبراطور دقلديانوس في تاريخ الإمبراطورية الرومانية، وذلك على المستويات السياسية، الإدارية، الاقتصادية والعسكرية، بالإضافة إلى جوانب فريدة في شخصيته وسياسته، من أبرزها تنازله الطوعي عن العرش، وهو أمر غير مسبوق في تاريخ الأباطرة الرومان. وتتلخص أبرز النقاط كما يلي:

- العبقرية الإصلاحية: نجح دقلديانوس في تشخيص الأزمة المتعددة الأبعاد التي عصفت بالإمبراطورية، وأطلق سلسلة من الإصلاحات العميقة، تمثلت في إعادة هيكلة الإدارة، تقسيم السلطة عبر نظام التيتراركية، وتنظيم الجهازين المدني والعسكري. وقد ساهمت هذه الإجراءات في استعادة شيء من الاستقرار، ولو مؤقتًا.
- نظام التيتراركية كنموذج سياسي: ابتكر دقلديانوس نظام الحكم الرباعي كآلية لتقاسم السلطة ومواجهة التحديات في مختلف أقاليم الإمبراطورية. رغم النجاح الأولي لهذا النظام، إلا أن تناقضاته البنيوية ظهرت سريعًا بعد تقاعده، مما يبرز هشاشته أمام الطموحات الشخصية للقادة العسكريين.
- الإصلاحات الاقتصادية المركزية: سعى دقلديانوس إلى تثبيت الاقتصاد من خلال مرسوم الأسعار وإصلاح النظام النقدي والضريبي. ورغم الطابع التنظيمي الطموح لهذه الإجراءات، فإن نتائجها لم تكن دائمًا إيجابية، بل أظهرت محدودية قدرة الدولة على إدارة الأسواق والتدخل في حركة العرض والطلب.

- الاضطهاد الديني ودوره في تشكيل صورته التاريخية: شكّل اضطهاد المسيحيين في عهد دقلديانوس إحدى الصفحات السوداء في تاريخه، إذ ارتبط اسمه باضطهاد دموي ساهم في تعزيز العداء له في المصادر المسيحية اللاحقة، ما أثر في تقييم إرثه.
- تنازل غير مسبوق عن العرش: يُعد تنازل دقلديانوس عن العرش سنة 305م حدثًا فريدًا في التاريخ الروماني، حيث تقاعد طوعًا من الحكم بعد أكثر من عشرين عامًا في السلطة، وانتقل للعيش في قصره في سبالاتو (سپلِيت الحالية بكرواتيا)، وفضّل العزلة على الاستمرار في الحكم. ويُفسّر هذا القرار بعدة عوامل، منها تقدّمه في السن، تدهور صحته، ورغبته في تطبيق مبدأ الخلافة المنتظمة الذي نظّر له من خلال التيتراركية.
- الدروس المستفادة من حكمه: يُظهر حكم دقلديانوس كيف يمكن للقيادة الحازمة، وإن كانت استبدادية، أن تعيد هيكلة دولة على شفا الانهيار. إلا أن تجربته تكشف أيضًا عن حدود القدرة الفردية على التحكم في التغيرات الاجتماعية والسياسية طويلة الأمد.
- استمرارية التأثير بعد وفاته: ورغم فشل النظام الرباعي بعد تقاعده، فإن كثيرًا من إصلاحاته الإدارية والتنظيمية بقيت حاضرة في السياسات الإمبراطورية اللاحقة، خصوصًا في عهد قسطنطين. كما أن الطابع المركزي للدولة وتقسيم السلطة الإدارية والإقليمية ظلا أساسًا في البنية السياسية للإمبراطورية الرومانية الشرقية لاحقًا.

قائمة المراجع

- Barnes, T. D. (1982). *The New Empire of Diocletian and Constantine*. Harvard University Press.
- Drake, H. A. (2000)Constantine and the Bishops: The Politics of Intolerance .Johns Hopkins University Press
- Drinkwater, J. F .(1987) .*The Gallic Empire: Separatism and Continuity in the North-Western Provinces*
- *Elton, H. (1996 .(Warfare in Roman Europe, AD 350–425 .Oxford University Press*
- Fox, R. L. (1987). *Pagans and Christians*. Penguin Books.
- Frend, W. H. C. (1965). *Martyrdom and Persecution in the Early Church: A Study of Conflict from the Maccabees to Donatus*. Doubleday.

- Grant, M .(1996) .*The Roman Emperors: A Biographical Guide to the Rulers of Imperial Rome*.
- Heather, P. (2005). *The Fall of the Roman Empire: A New History of Rome and the Barbarians*. Oxford University Press.
- Jones, A. H. M .(1964) .*The Later Roman Empire 284–602* .Johns Hopkins University Press.
- *Lenski, N. (2003)Failure of Empire: Valens and the Roman State in the Fourth Century A.D .University of California Pres*
- *MacMullen, R. (1984 .(Paganism in the Roman Empire .Yale University Press*
- *of the Roman Empire AD 260–274*
- Potter, D. S .(2004) .*The Roman Empire at Bay, AD 180–395* (p. 46).
- Scheidel, W. (2012 .(The Cambridge Companion to the Roman Economy .Cambridge University Press.
- Southern, P .(2008) .*Empress Zenobia: Palmyra's Rebel Queen* ,.
- Southern, P., & Dixon, K. R. (1996). *The Late Roman Army*. Yale University Press.
- *Survey .Johns Hopkins University Press.*
- Williams, S. (1985). *Diocletian and the Roman Recovery*. Routledge.